THE GILLETTE MARRIAGE



FERDINANDO FREGA

زواج GILLETTE

THE FAMILY · 16

الزواج

حين كان يمشي، ورغم أنه رجل، كنتَ ترى فيه بعدُ أناقةَ ضابط الجيش الذي كانه يومًا وانتصابَ قامته، لكنك كنت ترى أيضًا التربية التي تلقّاها في المدرسة الداخلية، حيث كانت تسود قاعدة واحدة: تكلّم قليلًا وأصغِ إلى كلّ شيء.

كان في السابعة والعشرين في أكتوبر ذاك من عام 1962، حين رآها تدخل محل التبغ الذي كان يعمل فيه، فأُسِر على الفور.

طويلة، لافتة، جنوبية الملامح بلا أدنى لبس، بتلك النظرة الماكرة التي لا تعرف كيف تُلقيها إلا النساء. لكنها لم تكن إلا في السادسة عشرة من عمرها. كان اسمها جوفانّا، لكنها كانت عند الجميع في العائلة جانّا دائمًا.

سأل الزبون عنها على الفور: من هي، ومن عائلتها، ومن أين جاءت. لم يُعِر عمرها اهتمامًا يُذكر. في تلك السنوات، كان هذا النوع من الزواج يُبارَك ثلاث مرات: من العائلات، ومن الكنيسة، ومن المجتمع. كان يُقدَّم وسيلةً لتسوية أوضاع البنات، لكنّ من كانت تُسوّى أوضاعهم في الحقيقة هم الأبناء الذكور وحدهم.

كان أبوها يعمل في السكك الحديدية. وكانت أمها تملك مشغل خياطة محترمًا في البلدة، تعمل فيه خيّاطات، ويصنع الثياب لعائلات بارزة تطلب حِرفية عالية المستوى وتدفع مقابلها بسخاء.

وكانت لجانّا أخت أخرى، فرانتشيسكا، تكبرها بعامين تقريبًا. متّزنة وهادئة، وهي صفة ما زالت تتحلّى بها حتى اليوم.

ولمّا اكتملت الصورة، طلب أبي من الزبون أن يعرّفه إلى تلك العائلة. أراد أمي زوجةً له. أراد أن يتزوّجها. أرادها.

وهكذا، في أبريل 1963، تزوّجا.

وكلّما أثنى على خصال زوجته أمام أمها، كانت تبتسم وتقول إنّ ذلك غير صحيح، لأنّ جانّا ممثلة بارعة لا تستأذن أبدًا. كانت ببساطة تأخذ كلّ ما تريد.

احتاج أبي إلى أقلّ من ثلاثة أشهر ليفهم أنه لن يستطيع أبدًا أن يشكّل تلك الفتاة أو يصوغها على الصورة التي تخيّلها. كانت ببساطة امرأة واضحة الأفكار، ولم تُضِع وقتًا في أن توضّح له ذلك هو أيضًا.

وذات يوم صفعها على وجهها. كان ذلك سلوكًا يعترف به ذلك الزمن حقًّا للرجل داخل الأسرة.

لكنها لم تفقد رباطة جأشها.

خرجت وذهبت إلى متجر للسكاكين، حيث اشترت ساطورًا للّحم وسكّين جزّار.

عادت إلى البيت، ونظرت إلى أبي، وقالت:

«إن حاولتَ ذلك يومًا مرةً أخرى، فسآتيك في الليل وأقتلك.»

لم يكن في صوتها تهويل ولا تردّد. يقينٌ فقط.

اليقين بأنها ستفعلها.

خمسة عشر يومًا ظلّ ينام داخل البيت، مقفلًا على نفسه في غرفة منفصلة، ولم يكن يخرج إلا حين يتيقّن أنّ الخطر قد زال.

وبقيت تلك السابقة الوحيدة.

انتقلا إلى كوزنسا، على بعد ثلاثمئة كيلومتر من ريجو كالابريا.

في ذلك الوقت لم يكن هناك طريق سريع، وكانت الرحلة تستغرق قرابة ست ساعات على الطرق الإقليمية وعبر زحام لا ينتهي في البلدات الصغيرة.

نظرتان.

أقلّ من ثلاث دقائق.

كان ذلك كافيًا ليُحسَم مستقبل، داخل حيّ سيدوم جسديًّا اثنين وستين عامًا، لكنه سيبقى خالدًا فيما صنعاه وفي داخلنا، نحن أبناءَهما.

كوزنسا – 1963

استأجرا بيتًا في كورسو إيطاليا، وهي منطقة في وسط المدينة، غنية بالمتاجر ويخدمها النقل العام جيدًا. لكن بعد انتهاء شهر العسل، كانت العودة إلى الحياة العادية مرحلة لم يكن يعرفها أحد.

كلّ يوم اثنين كان أبي يغادر البيت في الثانية فجرًا ليصل إلى زبونه الأول في الثامنة أمام أحد المتاجر. كان يقود ثلاثمئة كيلومتر، ثم يعمل خلال الأسبوع، يومًا بعد يوم، أقرب فأقرب إلى البيت، حتى يستعيده من جديد مساء الجمعة.

في تلك الأثناء، حالف الحظّ أمي فتعرّفت إلى نورا فورميزانو، التي كانت تسكن قبالة بيتها تمامًا، وصارت الاثنتان صديقتين.

كانت نورا امرأة في سنّ أمها هي، وصارت لها بمثابة أم.

كانت تنحدر من عائلة نابولية نبيلة، ومتزوجة من موظف رفيع في وزارة الداخلية يخدم في تلك المنطقة. وكان لها أيضًا ثلاثة أولاد، أصغر من أمي بقليل فقط.

ولها اعترفت أمي ذات صباح بأنّ دورتها الشهرية تأخّرت تأخّرًا غريبًا. فقد كانت منتظمة دائمًا.

وبعد أن سمعتها نورا تشرح أنها لا تفهم لماذا تشعر باستمرار بالحاجة إلى التبوّل، عانقتها وقالت:

«يا ابنتي، أنتِ حامل.»

حين عاد أبي إلى البيت، قرّرت ألّا تقول شيئًا.

كانت تريد أن ترى ردّ فعله، لكنها كانت تنتظر عيد الفصح لتخبره.

وهكذا فعلت.

ناولته بيضة عيد الفصح وقالت:

«أنا حامل. علينا أن ننتقل إلى ريجو كالابريا. لا أريد أن يولد طفلي هنا. أريد عائلتي إلى جانبي.»

لم يكن النقل بتلك السهولة.

كان يتطلّب موافقة الشركة لأسباب تتعلّق بالعمل، ولا يمكن تنفيذه إلا بعد ذلك.

ظنّ أبي أنه يستطيع كسب بعض الوقت.

لكن في ديسمبر 1963 ركبت أمي حافلة ورحلت وحدها إلى بيت والديها، حيث وضعت تيريزا في 11 يناير 1964.

وحين وُلدت تيريزا وانتشر الخبر في العائلة، انتظر الأقارب أسابيع قبل أن يزوروها.

جرح ذلك كبرياءها كامرأة، ودفعها إلى اتخاذ قرار بشأن المستقبل.

لن تعود علاقتها بحماتها وبأخت زوجها كما كانت أبدًا.

بقي الغضب، محبوسًا خلف عينيها.

في تلك الأثناء، سار طلب النقل في مجراه، وفي مايو 1964 تلقّى أبي هدية عيد الفصح الثانية.

كانت أمي تنتظر طفلًا آخر.

ريجو كالابريا – 1964

في سبتمبر 1964، صدر قرار النقل من الشركة أخيرًا، فانتقلا إلى ريجو كالابريا.

لكنّ العلاقة المثالية التي كانت تتوقّعها مع أمها لم تتحقّق قطّ. كانت أمها متسلّطة، ولم تتنازل يومًا عن سلطتها أو نفوذها لأحد. كان أبوها الوحيد الذي يدلّلها ويلبّي رغباتها، وكلّ ما فعلته بعد ذلك كان متوقّفًا عليه.

كان ذلك في 21 فبراير 1965.

ملعب كرة القدم.

ريجينا ضد كوزنسا.

كان أبي وعمّي في المدرّجات حين أعلن المذيع أنّ المدعوّ فينتشنزو فريغا مطلوب عند المدخل لرسالة عاجلة.

ظنّها مزحة وبقي في مكانه.

ثم جاء الإعلان الثاني:

«فينتشنزو، لا نستطيع إيقاف المباراة، ولا نستطيع إيقاف مخاض زوجتك أيضًا. هلّا تكرّمت بالذهاب إلى البيت؟ ابنك يولد الآن.»

ضحك الجميع.

تظاهر، وهو محرَج، بأنه ليس الرجل المقصود.

جئتُ إلى الدنيا ومعي مباركة أبي.

«أردتَ ابنًا وها قد وصل. لكنّ هذا سيكون صليب حياتك.»

أُبلغ الجميع على الفور، فجاؤوا كأنهم المجوس الثلاثة.

كانت ولادة ابن ذكر تُعدّ حدثًا يضمن استمرار اسم العائلة، لكنّ أحدًا لم يتوقّف قطّ ليفكّر في أنّ الرجل بلا امرأة ناقص.

وسأقضي الاثنين والستين عامًا التالية في شرح ذلك.

ففي النهاية، الصليب خيرٌ من المطرقة والمنجل.

كان ذلك كلّ ما احتجت إليه لأفهم زميلي من قبل ألفي عام، وأعرف كيف قد تكون الأمور هناك في الأعلى.

ريجو كالابريا – 1965

جاتّا في التاسعة عشرة من عمرها فقط.

لها طفلان، وزوج يعمل لدى Gillette، ولا ميل لديها على الإطلاق لأن تصبح ربة بيت.

قواعد البيت قد تقرّرت بالفعل.

الراتب وكلّ امتيازات الشركة تمرّ بين يديها.

أبي يعيش على تعويضات مصاريف Gillette، لأنه يعمل دائمًا ولا يجلس أبدًا يحكّ خصيتيه.

تبدأ في متابعة أسواق العملات، لأنّ أبي يفوز كلّ شهر بمسابقة مبيعات في إيطاليا، والمقرّ الرئيسي في ميلانو يرسل جنيهات ذهبية جوائزَ.

ثم يشحن مدير المبيعات إلى البيت طقم غرفة نوم كاملًا.

خشب زان حقيقي.

أسرّة مدمجة.

مراتب.

وسائد.

بطانيات وألحفة.

ملاءات صيفية وملاءات شتوية.

كلّ شيء مصمَّم بطراز فريد يترك الناس عاجزين عن الكلام كلّما رُويت القصة.

لكنها خائفة.

لا ترى استقرارًا.

ومن يستطيع أن يلومها؟

مساء الجمعة، ما إن يدخل أبي من الباب حتى تقول:

«عندي طفلان. أريد سيارة جديدة.»

«لكن ليست لديكِ رخصة قيادة. كيف ستقودينها؟»

«غدًا ستشتري لي سيارة جديدة. أريد Simca 1000. بخمسة أبواب.»

لم يكن أحد يستطيع كبحها.

ولو حاول أحد، لصارت الحياة جحيمًا حقيقيًّا.

كان أفضل حلّ أن يذهب في اليوم التالي إلى معرض السيارات، ويحرّر شيكًا بمليون وثمانمئة ألف ليرة، ويشتري التأمين، ويسلّمها المفاتيح.

وتبيّن أنه كان القرار الصائب.

بعد اثني عشر يومًا كانت قد حصلت على رخصة القيادة.

لم يكتشف أحدٌ قطّ كيف تدبّرت ذلك.

في تلك الأثناء، كان أبوها يملك كلّ العقارات التي يشغلها مشغل الخياطة الذي تملكه أمّها.

وكانت له نقطة ضعف تجاه ابنته المفضّلة.

لم يستغرق الأمر سوى دقائق قليلة.

«بابا، أفسِح لي مكانًا في مشغل ماما للخياطة. خلال ستة أشهر سأفتح متجرًا لخيوط الصوف ولوازم الخياطة.»

توصّل الاثنان إلى اتفاق.

ببضع خطوات فقط، نقل جدّي زوجته إلى مكان منفصل، ومنح ابنته واجهتين تجاريّتين مستقلّتين.

عادت إلى البيت وقالت لأبي إنها تحتاج إلى ثلاثة ملايين ليرة.

وإنّ عليه أن يطلب المال من والدَيه بذريعة أنّهما، هو وهي، يريدان شراء بيت.

جاراها أبي.

وصل المال.

ووصلت معه اللافتة فوق المتجر:

LANA BBB DI GENNY

لكنها كانت تحتاج أيضًا إلى رخصة تجارية من البلدية، ولم تكن تملكها.

في أواخر الستينيات، لم تكن البيروقراطية مثالًا للكفاءة.

كانت نفقًا يعيش داخل السياسة ويسافر عبر السياسة.

صباح ذلك الاثنين، طلبت من أبي أن يأخذ يوم إجازة ويبقى معنا في البيت.

ثم خرجت.

كالريح حين تهبّ على الصحراء.

تشعر بها تتحرّك، لكنك لا تعرف من أين جاءت بحقّ الجحيم.

ذهبت إلى مبنى البلدية.

هناك صادفت موظّفًا كاد يضحك في وجهها حين طلبت الرخصة.

وقبل أن يستوعب أحدٌ ما يجري، كانت قد أخذته بتلابيب سترته، وسحبته من شبّاك المكتب حتى صار نصفه خارجه، وخمسة أشخاص يحاولون انتزاعها عنه.

في تلك الأثناء، صادف أن مرّ رئيس البلدية.

كان اسمه بييترو باتّاليا.

وقد شغل لاحقًا مقعدًا في البرلمان الإيطالي لعدّة ولايات.

راقب المشهد، ثم أخذ أمي من ذراعها ودعاها إلى مكتبه.

بعد عشر دقائق خرجت وفي يدها رخصة تجارية من الجدول XV.

للتوضيح، كانت من نوع الرخص المطلوبة في إيطاليا لافتتاح هايبرماركت — أعلى مستوى، ويستحيل عادةً الحصول عليها من دون علاقات سياسية.

انطلقت التجارة.

اصطفّ مندوبو المبيعات في الخارج.

وفي النهاية قال أحد الزملاء لأبي:

«أتدري، هناك صاحبة متجر في ريجو كالابريا تُذيق كلّ مندوب مبيعات الأمرّين.»

فأجاب أبي:

«نعم، أعرف. حدّثني عنها كثيرون.»

لكنه لم يقل قطّ إنها زوجته.

صارت للمتجر حياةٌ خاصة به.

كان الناس يأتون من كلّ أنحاء المدينة للشراء منه.

المرأة التي تأخذ الرجال بتلابيبهم وتدفعهم بعنفٍ إلى الجدار.

لم يكن يهمّ كثيرًا أكانوا موظّفين حكوميين أم رجال مافيا.

تردّد اسمها في أرجاء المدينة.

زوجة رجل GILLETTE.

السيطرة

ذات صباح، قام سائق شاحنة بمناورة متهوّرة في إحدى جادّات المدينة.

علقت الشاحنة بباب سيارة أمي واقتلعته.

لم يُجدِ صوت بوقها نفعًا.

لم يدرك السائق أصلًا ما حدث، وواصل طريقه بينما كانت السيارة تتكبّد أضرارًا كبيرة.

وأخيرًا توقّف ونزل إلى الشارع يصرخ بأنّ هؤلاء النساء اللعينات لا يعرفن القيادة.

وأعلن بصوت عالٍ أنّ الأجدر بالنساء أن يبقين في البيت ويربّين الأطفال.

ثم، وهو ينظر مباشرةً إلى أمي الجالسة خلف المقود، انهال عليها بالشتائم والتهديدات على طريقة رجال المافيا.

كانت في المقعد الخلفي أختي، وعمرها أربع سنوات، وأنا، وعمري ثلاث سنوات.

قالت لنا ألّا نتحرّك.

وإنها ستعود حالًا.

لم نعرف قطّ ما الذي حدث في الخارج بالضبط.

كلّ ما نعرفه أنّ رجل المافيا انتهى به الأمر جاثيًا على ركبتيه أمام أمي، يقبّل يدها ويطلب منها الصفح.

في الأيام التالية، شهد المتجر زيادة استثنائية في عدد الزبائن.

كان عدد الداخلين من الباب كبيرًا إلى حدّ أنّ أبي سألها في النهاية هل تضع هوامش الربح الصحيحة أم أنها توزّع البضاعة مجانًا.

وقبل أن يتمكّن حتى من الجلوس في البيت، قالت:

«غدًا اذهب إلى وكالة Fiat واشترِ لي FIAT 124 Special بيضاء، محرّك 1400، بأربعة أبواب.»

«لكن يا جانّا»، ردّ أبي، «أتعرفين كم ثمنها؟»

«ثلاثة ملايين وستمئة وخمسون ألف ليرة. ادفع أنت الآن. وحين يصل مال التأمين عن سيارة Simca، التي لا يمكن إصلاحها، سأردّ لك المبلغ.»

وكان ذلك كافيًا.

بعد أقلّ من اثنتي عشرة ساعة، كانت السيارة الجديدة تمامًا متوقّفة في الخارج.

لم يكن هناك سوى تعليق واحد:

«يقولون لي إنّ هذه السيارة تُستعمل في كالابريا في عمليات السطو لأنها سريعة وتستجيب بخفّة. لماذا تحتاجين إليها؟»

نظرت إليه بجدّية وأجابت:

«سترى.»

وحين كان يخرج إلى العمل في الصباح، كانت تسأله دائمًا:

«إلى أين ستذهب اليوم؟ أين ستتناول الغداء؟»

فيجيبها بأنه قد يكون على بُعد مئة وعشرين كيلومترًا.

فنظهر نحن الثلاثة هناك على حين غرّة.

كان يظنّ ذلك حبًّا.

أما هي فكانت ببساطة تحرس ممتلكاتها.

ثم، وكي لا تفقد العادة، حاولت أن تنقل نظام السيطرة نفسه إليّ.

لم ينتصر أيٌّ منّا قطّ.

لا هي.

ولا أنا.

كانت تؤمن بأنّ السيطرة تُمارَس بالحرمان وبالضرب.

الأول لم يكن له تأثير يُذكر عليّ، لأنني كنت أحوّل حاجاتي فورًا نحو شيء آخر، وهذا ما كان يُفقدها صوابها.

أما الثاني فببساطة لم أكن أشعر به.

لم أكن أبدي ردّ فعل.

لم أكن أبكي.

لم أكن أشتم.

كنت أسيطر على الألم.

بعد سنوات، ستساعدني تلك السيطرة نفسها على تجاوز صعوبات أخرى.

كانت تعتقد دائمًا أنّنا متطابقان.

لكنها لم تتقبّل قطّ أنّ جزءًا منّي ينتمي إلى أبي.

وهو انتصر بالأفعال.

وفي صمت.

الميدان

مكالمة من مدير القطاع مساء الجمعة، بعد تسليم أرقام المبيعات الأسبوعية، أعطته ما يفكّر فيه: صاحب الجلالة، مدير المبيعات في Gillette إيطاليا رافاييلي دي تولّيو، سيقضي معه ثلاثة أيام في الميدان، والموعد محدّد صباح الاثنين في الساعة 7:30 في فندق إكسلسيور في ريجو كالابريا.

تضمّن برنامج الأسبوع زيارات بيع في أنحاء المدينة وبعض الزيارات في الضواحي المحيطة بها. ولأنّ الوقت كان قد بلغ منتصف يوليو، والجميع يعرف إلى أيّ حدّ يمكن أن تشتدّ الحرارة في تلك المنطقة، دسّت أمي قميصًا ثانيًا في حقيبته، وقالت له إنه من الأفضل قبل الغداء أن ينتعش ويبدّل ثيابه.

وصل إلى الموعد بكامل زيّه: بدلة زرقاء لا تشوبها شائبة، وقميص أزرق فاتح، وربطة عنق، وكلّ الاحترام الواجب للرجل الذي وظّفه.

كان يومًا شديد الحرارة، وتبلّلت ثياب الرجلين بالعرق. ومع ذلك، لم تكن أرقام المبيعات محور أيّ حديث خلال الزيارات. كان النقاش يدور حول ما إذا كان سعيدًا، وكيف يشعر في حياته العائلية، وكيف يتأقلم مع الشركة.

في اليوم التالي عاد أبي لليوم الثاني من الزيارة الميدانية. وسواء لأنه لم يُحسن قراءة الموقف أو لأنه وثق بأرقامه أكثر مما ينبغي، فقد ارتكب خطأً. حضر مرتديًا البدلة نفسها، التي كانت، رغم أنها جفّت، لا تزال تحمل آثارًا واضحة لعرق اليوم السابق.

نظر إليه دي تولّيو ثانيةً طويلة، ولم يقل شيئًا، ثم دعاه إلى الجلوس في مقهى لتناول القهوة.

«فينتشنزو»، قال، «إنّ Gillette لا تبيع الشفرات. Gillette تبيع الثقة. لن يضع رجلٌ شفرةً على عنقه كلّ صباح إلا إذا كان يثق بالرجل الذي باعه إياها. والثقة تبدأ بقميص نظيف.»

لم يُجب أبي. لقد فهم.

في تلك الليلة عاد إلى البيت وقال لأمي إنها كانت على حق. مرة أخرى.

لم يرتكب الخطأ نفسه مرتين قطّ.

في اليوم الثالث، صافحه دي تولّيو أمام الإكسلسيور وقال: «ستذهب بعيدًا. لأنك تُصغي.»

صار ذلك الدرس قانون العائلة.

كانت أمي تسيطر على كلّ ما يُرى. الرخصة، والمتاجر، والسيارات، والمال.

وكان أبي يسيطر على كلّ ما لا يُرى. القدوة، والصمت، والجَلَد، وكرامة أن تحضر بهيئة لا تشوبها شائبة حتى حين تكون قد تصبّبت دمًا طوال يومين.

احتجت إلى ستين عامًا لأفهم أنّ هذا هو الزواج.

شخص يأخذ موظّفًا بتلابيبه ليحصل على رخصة.

وشخص آخر يبدّل قميصه في دورة مياه عامة كي لا تخجل منه شركته.

زواج GILLETTE

الزواج ليس وعدًا. إنه شفرة.

إن تعاملت معها بعناية، منحتك حلاقة نظيفة كلّ صباح طوال اثنين وستين عامًا.

وإن تعاملت معها بإهمال، قطعت عنقك.

لم يجرح أبي وأمي أحدهما الآخر قطّ.

كلّ ما في الأمر أنهما تعلّما، يومًا بعد يوم، كيف يمسكان الشفرة معًا.

فرديناندو فريغا
⚔️ Gillette Man